كلية الآداب واللغات المستوى : ماستر1 (نقد حديث ومعاصر)

قسم اللغة والأدب العربي الأستاذ : بودوخة (مصادر التراث أ. ن)

التطبيق رقم 01 : مفاهيم المصادر وأنواعها

أ/ **تمهيد :** بدأ العرب بالتدوين بعد الإسلام ، وأول ما دوّنوا القرآن الكريم . ففي وقعة (اليمامة 12هـ) ، استحرّ القتل بحفاظ القرآن الكريم ، فسارع عمر بن الخطّاب (ط) إلى الخليفة أبي بكر الصديق (ط) وحثّه على جمع القرآن قبل أن يضيع ، وأبو بكر يمتنع أن يُحْدِثَ أمرا لم يفعلْه رسول الله (<) ، ولا أوصى به من بعده ...

وظل عمر(ط) يراجعه من حين لآخر حتى شرح الله صدره لما شرح له صدر عمر فأمر زيد بن ثابت (ط) أن يتولى جمع القرآن الكريم ، فجمعه على صحف من أديم (جلد مدبوغ) ، وظلت هاته الصحف عند أبي بكر، ثم عند عمر ، ثم عند أم المؤمنين حفصة بنت عُمر(ل) ، حتى نَسَخَ عنها الخليفة الثالث عثمان بن عفّان (ط) مصاحفه الستّة ، فاحتفظ بمصحف عنده ، ومصحف لأهل المدينة المنورة ، وبعث بالمصاحف الأربعة المتبقية إلى الأمصار (مكة ، والبصرة ، والكوفة ، والشام) ... وتعد هذه أول محاولة لتدوين اللغة ...

س/ ما هو المصدر ؟ وما الفرق بين المصدر والمرجع ؟

ج/ المصدر هو كل كتاب تناول موضوعا ، وعالجه معالجة شاملة عميقة ، أو هو كل كتاب يبحث في علم من العلوم على وجه الشمول والتعمق ، بحيث يصبح أصلا لا يمكن لباحث في ذلك العلم الاستغناء عنه ... ومثال ذلك : الجامع الصحيح للبخاري وصحيح مسلم : هما أصلان ومصدران في الحديث النبوي ، بينما كتب الأحاديث المختارة ، كـ(رياض الصالحين) للإمام النووي من المراجع في ذلك . وهذا يعني أنّ المصدر يحتوي على المادة الأصيلة ، والمرجع هو الكتاب الذي رجع فيه صاحبه إلى هذه المادة في مصدرها وأفاد منها .

يقول أحد الباحثين : " فالمصدر أصدق ما يكون حين يطلق على الآثار التي تضم نصوصا أدبية ، شعرا أو نثرا ، لكاتب واحد أو مجموعة من الكتاب ، لشاعر فرد أو لطبقة من الشعراء ، أو لخليط من كتاب وشعراء وخطباء ، رُويت هذه الآثار شفاها ، او دُوّنت في كتب ، أو نُقشت على الأبنية ، ووصلتنا دون تعليق على النص أوتفسير له ، دون تمهيد له أو تعليق عليه " . أما المرجع فهو " ما يساعد على فهم النص وتوضيحه وتفسيره وتقويمه " .

ومع أن الحدود بين المصدر والمرجع قد تبدو واضحة ، فإن هناك حالات يصعب فيها الفصل بين المصدروالمرجع . ومثال ذلك كتاب شرح ديوان الحماسة للمرزوقي يتضمن ديوان الحماسة لأبي تمّام ـ وهو مادة أصيلة ـ وشرح المرزوقي ، وهو تفسير لهذه المادة ، فهل يُعدّ هذا الكتاب مصدرا أم مرجعا ، أم مصدرا ومرجعا في نفس الوقت ؟؟؟

ولحل هذا الإشكال ، تم استخدام مصطلح إضافي هو **(المراجع الأصيلة)** ، وهي تلك المؤلفات التي كُـتِـبَت حـول مـصدر من المـصادر في الـزمن الـذي صُنـف فيه هذا المصدر ، أو في زمن قريب منه وعلى ذلك يكون شرح المرزوقي لحماسة أبي تمام مرجعا أصيلا لفهم تلك الأشعار ، ويقابله **(المرجع المساعد)** ، وهو لا يتصل بمادة المصدر أصلا ، لكن يمكن الإفادة منه في إلقاء الضوء عليها بطريقة غير مباشرة ...

وهـناك تصـنـيف آخر للـمـصادر تـنـقـسم بـمـوجـبه إلى مصادر **(أساسية)** ومصادر **(مساعدة)** ، فالمصادر الأساسية هي التي استهدف بها أصحابها الجانب الأدبي ابتداءً وأما المصادر المساعدة فهي التي تتمثل في نصوص أدبية هامة ، مبثوثة في مَـظانَّ غير أدبية ، من معاجم وكتب لغة ونحو وجغرافيا وتاريخ ... إلخ ، ومثال ذلك : كثير من أشعار الفـتوحات الإسلامـية لا نجد لها أثرا في كتب الأدب ، بينما نجدها مبـثوثة في كتب السِّيَر والتراجم والجغرافيا والتاريخ ، وبخاصة تاريخ الفتوحات الإسلامية : كالإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني ، وأُسْد الغابة في معرفة الصحابة لعزّ الدين بن الأثير، والاسْتيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البَرّ، ومعجم البلدان لياقوت الحموي، والروض المعطار في خبر الأقطار للحِمْيري، وفتوح الشام للواقدي والأخبار الطوال لأبي حنيفة الدِّينَوَرِي ، وتاريخ الطبري ...

و**النتيجة** التي ينـبـغي الـركون إليها ، هي أنّ كـلَّ باحث يسـتـطـيع أن يحدّد مصادره ومراجعه وفـقا لدراسته ولمنهجه في هـذه الـدراسة ، وكل كـتاب يمـدّه بالمادة الأولية لدراسته يُعدّ مصدرا ، وكل كتاب يُلقي ضوءًا على هذه المادة ، أو يقول فيها رأيا يُعدّ بالنسبة إليه مرجعا ، ومثال ذلك : الباحث الذي يريد أن يدرس شعر المـتـنـبّي مثلا ، يكون ديوان الشاعر ، وما اتصل بحياته من أخبار مصدرا له ، في حين يكون كتاب مثل كتاب (مع المتنبّي) لـ(طه حسين) مرجعا . لكن لوْ فرضنا أن موضوع الدراسة هو (الدراسات الشعرية في كتابات طه حسين) ، عـندها يصبح كـتاب (مع المتنبّي) مصدرا ، وتصبح هذه الدراسة ـ الجديدة ـ فيما بعد مرجعا .

ب/ مصادر التراث الادبى :

كان لحركة التصنيف والتأليف الأدبي نشاط دائب ، وللتدليل على ذلك نحاول الوقوف

على أمهات المصادر الأدبية ، التي جمعت بين دفّتيها قدرا هائلا من المعارف العربية ، في حدود ما كان مفهوما من الأدب من أنه (الأخذ من كل شيء بطرف) ، وذلك أن هذه المصنّفات قد جمعت بين الأخبار والسير والتراجم والقصص والخطب والحِكم والأمثال ، وكل ما هو من قبيل الثقافة اللغوية من : نحو وفقه ولغة وما أشبه ومن ثَمّ كانت هذه المصنفات أشبه شيء بموسوعات في الثقافة الأدبية العربية ، فالكلام على قاعدة نحوية مثلا ، يستتبع ذكر الشواهد المختلفة من : القرآن الكريم ، أو من الحديث الشريف ، أو من الشعر القديم ، أو من الحِكم أو الأمثال التي تؤيّد القاعدة ، ثم يكون الشاهد طريقا إلى استقصاء المناسبة التي قيل فيها الشاهد ، فتُذكر القصة، ثم يستدعي المقام التعريف بصاحب الشاهد إن كان شاعرا أو حكيما، وربما جرّ هذا إلى إصدار حكم على الشاعر أو الحكيم ، أو الموازنة بينه وبين غيره ممن تجمعه به حاجة ، وهكذا ...

وإلى جانب تلك الكتب الموسوعية في مجال الأدب ، ظهرت مصنفات أخرى لها منهج واضح ن وهدف محدّد ، ومن ذلك كتب الطبقات التي صُنّف فيها الشعراء منذ العصر الجاهلي تصنيفا قيميا وتاريخيا في الوقت نفسه، أو صُنِّف فيه الأدباء الكتّاب سواء من اشتغل منهم بالأدب بمعناه الواسع القديم ، أو من تخصّص في فرع بعينه من فروع العلوم العربية ...

أمهات المصادر الأدبية :

أ/ البيان والتبيين للجاحظ :

1/ التعريف بصاحب الكتاب : هو أبو عثمان عَمْرُو بن بحر بن محبوب الكِناني، وقد عُرف بالجاحظ لجحوظ في عينيه ، وُلد على وجه التقريب سنة (159هـ) في عصر الخليفة المهدي ، وامتد به العمر فشهد ما وصل إليه المعتزلة من مجد سياسي وثقافي في عصر المأمون ، فلما دالت دولتهم في عصر المتوكل ، كان الجاحظ مايزال كاتبا غزير الإنتاج ، ثم أُصيب بالفالج (الشلل النصفي) ، والنقرس (التهاب المفاصل) فأصبح قعيد الفراش في عصر المنتصر والمستعين بالله ، وتوفي في خلافة المهتدي بالله سنة (255هـ) .

نشأ الجاحظ بالبصرة ذات البيئة الثقافية المعقّدة حيث نما المذهب الاعْتزالي وازدهر بفضل ما تسلّح به أصحابه من أسلحة ثقافية متنوعة ، كانت تمكّنهم من إفحام خصومهم من الملل والنِّحل المختلفة، وكان الجاحظ يتميز بمقدرة عقلية، ونَهَم شديد لكل أنواع العلوم والمعارف في عصره ...

وقد تتلمذ على أبي عبيدة والأصمعي وأبي زيد الأنصاري، وأخذ عنهم اللغة والأدب

وتتلمذ على الأخْـفَـش ، وأخذ عنه النـحو ، كما تتلمذ على إبراهيم بن سيّار النَّـظّام ، وأخذ عنه علم الكلام، واكتسب الثقافة اليونانية من حُنين بن إسحاق وسَـلْـمَـوَيْه ، كما اكتسب الثقافة الفارسية عن طريق ابن المقفّع ، وكان الكِتابُ أحبَّ شيء لديه ، يـقول عنه ابن النديم في الفهرست : " إنه كان يكتري دكاكين الورّاقين ويبيت فيها للنظر".

ولا عَـجَـبَ أن خَـلَّف لنا الجاحظ ثـروة من الكـتـب في مـوضوعات متعـددة ، منْـها العقائدية ككتاب الإمامة، ونَظْم القرآن ، وخلق القرآن ، والردّ على المُشَبِّهة ، والرد على اليهود ، والرد على النـصارى ، وكتب في (المُعارضات) ، ككتاب القحطانية والعدنانية ، والموالي والعـرب ، وفخر السـودان ، وفي المواضيع (الاجـتماعـية) : كتاب البخلاء ، وفصل ما بين العداوة والحسد ، ومن كتبه التي تغلب عليها السمة الأدبية : كتاب الحيوان ، وكتاب **البيان والتبيين** (موضوع الدراسة) ...

وقد عاب الجاحظ على الكتّاب عنايتهم بتَـنْـمِـيق اللفظ ، على حساب تعْميق الفكرة ، كما عاب عليهم تجمِـيعهم للشـواهد دون الاهـتمام بالكـشف عن النّـوازع الإنسانية ، قال للأخفش يوما : " أنت أعلم الناس بالنحو، فلماذا لا تجعل كتبك مفهومة كلَّـها ؟ وما بالُـنا نفهمُ بعضها ، ولا نفهم أكثرها ؟ وما بالُـك تقدّم بعض العويص ، وتؤخر بعض المفهوم ؟ ".

2/ ما الدافع إلى تأليف الجاحظ لكتاب (البيان والتبيين) ؟

لعلّ الدافع الذي جعل الجاحظ يصنّف كتابه هذا يتمثل في أمرين لا ثالث لهما وهما :

أ/ الأمـر الأول : وهو أن الجاحظ على الرغم من أنّ السِّـنَّ قد تقـدّمت به ، وأُصـيب بالفالج والنـقْـرس حتّى ألزماه الفراش ، لم يكن قد اختـصّ البيان العربي ببحث شامل يبيّن فيه طاقات اللغة العربية في مجال التعبير، وفي مجال إقناع المستمع عن طريق المناظرة والخطابة ، وهما اللونان الأدبيان اللذان كانا سائدين في بيئة البصرة .

ب/ الأمـر الـثاني : هو الردّ على الشـعوبية الذين كانوا يَعِـيـبون على العرب خطبهم وتتقاليدهم في إلقاء تلك الخطب ، ومنها الإمساك بالعصا ...

لقد كان موضوع الكتاب الرئيسي هو استنباط أصول البيان كما تحدّث فيها السابقون وكما مارسها علماء الكلام ، ومنهم الجاحظ نـفسه ، ونظرة إلى محتوى الكتاب تؤكد هذا ... فقد بدأه بالاسـتعاذة من العَـيّ ، ثـم تحـدّث عن نعْـمة فصاحة اللسان ، وعاب التَّـشَـدّق والتَّـقَـعُّـر ، وتحدث عن اختلاف لغة العرب في استعمال الألفاظ ، حتى إذا اقـتـرب من الخَـطابة تحدّث عن عُـيوب اللّـسان مشِـيرا في ذلك إلى أشْـهر الخُـطب والخطباء ، سواء من اشتهر منهم بسلامة النطق ، أو بعيب فيه ...

ثم ينتقل الجاحظ إلى البلاغة في الشعر وفي اللسان وفي الصمت وفي الكلام المسجّع مُـقَـدّما نماذج من الحديث الشريف والخطب والحِكم والألغاز ، ولا تفوته في كل هذا فكاهته التي عُرفت عنه ، وهي تبدو جلية في حديثه عن نوادر الحمقى والمجانين ...

ويُعدّ كتاب (البيان والتبيين) موسوعة في الأدب العربي تَغَذَّى بثمارها القدماء والمحْدَثون ، فقد اعتمد عليه كبار الكتّاب الذين جاؤوا من بعده ، كـ(ابن قُتيبة في عيون الأخبار) ، و(المُـبَـرّد في الكامل) ، و(ابن عبد ربّه في العِقد الفريد) ...

أما في العصر الحديث ، فليس هناك باحث في أي جانب من جوانب التراث العربي لمْ يسْتعنْ بكتاب (البيان والتبيين) ، ويعود ذلك إلى ما يحتوي عليه من ثروة هائلة ومتنوعة من التراث العربي ، فقد أصبح ما عِيبَ على الجاحظ من كثرة الاستطراد سببا في إثراء العقول التي تبغي التزوّد من معين التراث الأدبي .

3/ نشر كتاب (البيان والتبيين) :

نُشر كتاب (البيان والتبيين) لأول مرة بين سنتي (1311 – 1313هـ) ، وقام بنشره حسن الفاكهاني ومحمد الزهري الغمراوي في (مجلدين) .

ثم نُشر بعد ذلك في (ثلاثة مجلدات) عام (1332هـ) بإشراف مُحِبّ الدين الخطيب .

أما النشرة الثالثة، فقد أخرجها حسن السندوبي سنة (1345هـ) ، وتقع في (ثلاثة مجلدات) .

وفي عام (1367هـ / 1948م) ، قام الأستاذ عبد السلام هارون بتحقيقه تحقيقا عِلميا ووضع له فهارس كثيرة تعين الباحث في العثور على بغيته بسهولة ويسر ...

4/ نماذج من كتاب (البيان والتبيين) :

أ/ كان الحُطيئة يرعى غنما له ، وفي يده عصا ، فمر به رجل فقال : يا راعيَ الغنم ما عندك ؟ قال : عَجْراءُ سَلَم (يعني عصاه) ، قال : إني ضيف ، فقال الحطيئة : للضّيفانِ أعددتها .

ب/ قال الحَجاج لرجل من الخوارج : أجَمَعْت القرآن ؟ قال : أمتفرقا كان فأجمعَه ، قال : أتقرؤه ظاهرا ؟ قال : بل أقرؤه وأنا أنظر إليه ، قال : أفتحفظه ؟ قال : أخشيتُ فراره فأحفظَه ، قال : ما تقول في أمير المؤمنين عبد الملك ؟ قال : لعنه الله ولعنك معه ، قال : إنك مقتول فكيف تلقى الله ؟ قال : ألقى الله بعملي ، وتلقاه أنت بدمي .